دمشق ...

للأستاذ على الطنطاوى

« دمشق ! » ... وهل توصف دمشق ؟ هل تصور الجنة لمن لم يرها ؟ من يصفها وهى دنيا من أحلام الحب وأمجاد البطولة وروائع الخلود ؟ من يكتب عنها (وهى من جنات الخلد الباقية) بقلم من أقلام الأرض فانٍ ؟

دمشق : التى يحضنها الجبل الأشم الرابض بين الصخر والشجر ، المترفع عن الأرض ترفع البطولة العبقرية، الخاشع أمام السماء خشوع الإيمان الصادق ... دمشق التى تعانقها الغوطة ، الأم الرؤوم الساهرة أبداً ، تصغى إلى مناجاة السواقى الهائمة فى مرابع الفتنة ؛ وقهقهة الجداول المنتشية من رحيق بردى ، الراكضة دائماً نحو مطلع الشمس ، تخوض الليل إليها لتسبقها فى طلوعها ؛ وهمس الزيتون الشيخ الذى شيبته أحداث الدهر فطفق يفكر فيما رأى فى حياته الطويلة وما سمع ، ويتلو على نفسه آيات حكمته ؛ وأغانى الحور الطروب الذى ألهاه عبث الشباب ولهو الفتوة عن التأمل والتبصر ، فقضى العمر ساحباً ذيل المجون مائساً عجبا وتيها ، خاطراً على أكتاف السواقى وعلى جنبات المسارب يتازل النهد الحسان من نبات الشمس والرمان ، ويميل عليها ليقطف فى الربيع وردة من خدها ، أو غرة من قلائد نحرها، ثم يرتد عنها يخاف أن تلمحه عيون الجوز الشواخص ، والجوز ملك الغوطة جالس هناك بجلاله وكبريائه ، ولا جلال ملك تحت تاجه ، وعاهل فوق عرشه

دمشق : التى تحرسها (الربوة) ذات (الشاذروان) ، وهى خاشعة فى محرابها الصخرى تسبح الله وتحمده على أن أعطاها نصف الجمال حين قسم فى بقاع الأرض كلها النصف الثانى ... وما الربوة إلا حلم ممتع غامض يغمر قلب رائيه بأجل العواطف التى عرفها قلب بشرى فيذكّر كل إنسان بليالى حبه وساعات سعادته ، ثم يتصرّم الحلم ويستحيل إلى ذكرى حلوة لا تمحوها الأحداث ولا تطغى عليها سيول الذكريات ... الربوة : لحن من ألحان السماء ألقته مرة واحدة فى أذن الأرض ... الربوة هى الربوة لمن يعرفها وكفى !

* * *

دمشق من أقدم مدن الأرض وأكبرها سناً وأرسخها فى الحضارة قدماً . كانت مدينة عامرة قبل أن تولد بغداد والقاهرة وباريس ولندن ، وقبل أن تنشأ الأهرام وينحت من الصخر وجه أبى الهول ، وبقيت مدينة عامرة بعد ما مات أترابها واندثرت منهن الآثار ، وفيها تراكم تراث الأعصار ، وإلى أهلها اليوم انتقلت مزايا كل من سكنها فى سالف الدهر ، ففى نفوسهم من السجايا مثل ما فى أرضها من آثار التمدن وبقايا الماضى طبقات بعضها فوق بعض ... فالحضارة تجرى فى عروقهم مع الدماء ، وهم ورثتها وحاملو رايتها ، وهى فيهم طبع وسجية ؛ ولقد تكون فى غيرهم تطبعاً وتكلفاً ، فأى مدينة جمع الله لها من جمال الفتوة وجلال الشيخوخة كالذى جمع لدمشق ؟

وأصعد جبل دمشق حتى تبلغ قبة النصر (التى بناها برقوق سنة ٨٧٧ للهجرة ذكرى انتصاره على سوار بك)[1] . ثم انظر وخبرنى هل تعرف مدينة يجتمع منها فى منظر واحد مثل ما يجتمع من دمشق للواقف عند قبة النصر ؟ أنظر تر البلد كله ما يغيب عنك منه شىء : ها هنا قلب المدينة وفيه الجامع الذى لا نظير له على وجه الأرض — لا أستثنى ولا أبالغ — وقبة النسر تعلو هامته كتاج الملك ، لا بل كعامة الشيخ ، وها هى ذى منارتها التى تعد مائة وسبعين منارة ، منها عشرون من أعظم منارات العالم الإسلامى ، قد افتن بناتها فى هندستها ونقشها ، فاختلفت منها الأشكال واتفقت فى العظمة والجلال ، لا كمآذن بغداد التى لا يختلف شىء منها عن شىء ، فإذا أبصرت منها واحدة ، فكأنما أبصرتها جميعاً ... يحف بذلك كله الغوطة الواسعة التى تبدو للناظر كأنها بحر من الخضرة قد نثرت فيها القرى التى تنيف على الأربعين عدا ، أكبرها (دوما) ذات الكروم ، (وداريا) التى تفاخر بعنبها كل أرض فيها عنب ، (وحرستا) بلد الزيتون ومنبت الإمام محمد صاحب أبى حنيفة ، (وجرمانا) وهى حديقة

(١) وهذا جواب الذى سأل عن تاريخ هذه القبة فى عدد مضى من « الرسالة » ، أما القبة الثانية ، فقد بناها الأمير سيار الشجاعى وسميت باسمه

ورد ، وكفر سوسية ، وكفر بطنا ، والأشرفية ، وصحنايا ، والمآذن وهي مائلة خلال الأشجار ، ووراء الغوطة سهول المزة عن اليمين ، وسهل القابون عن الشمال ، وبطاح من الأمام ، وسهول تمتد إلى الأفق ، حيث تغيب الجبال البعيدة في ضباب الصباح ، ووهج الظهيرة ، وصفرة الطفل ، وسواد الليل ...

إنك لتشمل هذا كله بنظرة منك واحدة وأنت قائم مكانك ، فأين يا صديقي القارئ ترى مثل هذا ؟

* * *

وبردى ! لما قدم شاعر العرب ماسحة العرب وصى على بردى وهو يمشي بين قصر أمية ودار البلدية مشية العاجز الهرم ، قال له صاحبه مستقلاً بردى مستخفاً به : أهذا الذي ملأت الدنيا مدحاً له ؟ يظن صاحب شوقي أن النهر بكثرة مائه وبعد ضفتيه . ما درى أن بردى هو الذي يجري في الوادي زاخراً متوثباً نشيطاً لا الذي يجري في (المرجة) متهافتاً كليلاً ، وأنه هو الذي أطعم دمشق الخبز ، وهو الذي زرع بساتين الغوطة ، وهو الذي أنار دمشق بالكهرباء وسيّر فيها وفي غوطتها (الترام) ، وهو الذي لا تضيع قطرة منه واحدة على حين تمر دجلة على بغداد مرّ الكرام ، تقرأ عليها السلام ... ثم تحمل خيرها كله لتلقيه في البحر ، لا تمنح بغداد منه إلا ما تأخذه بالمضخات والنواعير التي لا تسير إلا بمال . فمن رأى مثل بردى (في بره بأرضه وكثرة خيراته) نهراً ؟ من ذاق أطيب من مائه ؟ من أبصر أجمل من واديه ؟ ...

* * *

لقد علم بردى أبناءه الولع بالخضرة والظلال ، وحبب إليهم أفانين الجمال ، فصارت النزهة (السيران) من مقومات الحياة في دمشق لا تحيا أسرة إلا بها ، ولا تستغني عنها ، فهي لهم كالغذاء ، فهل يستغني عن الغذاء ؟ هل يمكن أن يجيء يوم صائف من أيام الشتاء فتبقى دمشقية أو يبقى دمشقي في بيته لا يؤم (المهاجرين) ، حيث يجتمع على الشعاف والصخور وفي ظلال الآس الرجال والنساء على طهر وعفاف ، وتدور أكواب الشاي (الأخضر) خمر الصالحين ، وتنطلق بالغناء الساحر أوتار الحناجر وتجري خيول السبق في ساحة الجريد ؛ ثم إذا جاء وقت الصلاة قاموا إليها فلا ترى إلا جماعات وأئمة ، ثم ينفض اجتماعهم عن طرب وفروسة وعبادة ، وتلك هي المثل العليا لأهل الشام

وهل تمر أمسية من أمسيات الصيف على دمشقي قاعد في دكانه أو قابع في بيته ؟ تعال انظر جماعاتهم في قهوات (شارع بغداد) وفي كل قهوة مؤذنها (إي والله) وإمامها . وعلى ضفاف بردى عند (صدر الباز) وفي (الميزان) أجمل موضع في دمشق ، وأمامهم سماورات الشاي الصُّفر الرشيقة ، وفي كل حلقة مغنيها ، وليس مثل الشاميين في الولع بالغناء ، فلا ينفرد الرجل بنفسه إلا غنى لها ؛ فالفلاح وهو نازل من قريته مع الفجر يغني ، والحوذي وهو يسوق عربته إلى (جسر تورا) أو إلى (كيوان) يغني ، وأجير الخباز وهو يحمل المعجن على رأسه يغني ، ونداء الباعة كله غناء وشعر ...

قف ساعة على ظهر الطريق واسمع ما ينادي به الباعة تر عجباً لا شبيه له في البلاد ؛ قصائد من الشعر غير أنها مرسلة القوافي ، وطرائف من الغناء غير أنها محلولة القيود ، تمشي إلى القلوب طليقة حرة لا تسمي شيئاً باسمه ؛ وإنما هي مجازات وكنايات ، عجب منها بعض من كتب عن دمشق من سياح الإفرنج فتساءل في كتاب له عمّا نظم للباعة هذه الأشعار الرقاق !

وتعال استمع هذا البائع وهو يتغنى بصوت يقطر عذوبة وحناناً (ياغزل البنات ، ياما غزلوك في الليالي ، ياغزل البنات) ويضغط على (الليالي) وعلى (البنات) ، هل يستطيع قارئ أن يحزر ماذا يبيع هذا المنادي ! لا لن أقول فتعالوا إلى دمشق لتأكلوا غزل البنات ... وهذا بائع يهتف بكلمة واحدة لا يزيد عليها (الله الدايم) هل يقع في حسابك أنه يبيع (الخس) ، وأن (يامهون يا كريم) نداء بائع (الكعك) عند الصباح ، وأن من الباعة من ينادي بالحكم التوالي كهذا الذي ينادي : (ويل لك يا ابن الزنا يا خاين) فيفهم الناس أنه بائع (الترخون)

أوَلا يشجيك ويثير سواكن أشجانك بائع العنب حين تدنو أواخره فينادي بصوت حزين (هدوا خيامك وراحت أيامك . مابقي في الكرم غير الحطب ياعنب ، ودع والوداع لسنة ياعنب) ألا تحس كأنه يودع حبيباً له عزيزاً عليه ؟ وبائع العسل (أي الشمندر) وقد أوقد ناره في الصباح البارد ، ووضع (حلته)

وصفف رؤوس الشمندار الأحمر(١) ونادى فى أيام الشتاء (بردان! تعال سوي بردان ... أنا بياع العسل) ألا يعجب إليك أكل العسل؛ واسمع العجائب فى نداء بائع اللفوف (البختا): (يخنا والطبخ، والجارية بتفخخ، والبدع الباب، يقلع الكلاب) وبائع الحمص المسلوق (البليلة): (بليلة بلبلوك، وسبع جواد خدموك، يا بليلة)، وبائع الزعرور: (أبيض أحمر يا زعبوب؛ تمر عنى يا زعبوب، البزر بن يا زعبوب)؛ واستمع إلى الشعر والخيال فى نداء بائع الجرادق (يلما رمالك الهوا، وقلبي انكوى، يا ناعم). وبائع التين (دابل وعلى دياله يا عيون الحبيب، ومن دياله يعشى لحاله)؛ وبائع الباذنجان (أسود ومن سواده هرب الناطور) ألا تسجيك صورة الناطور وقد هرب من سواد الباذنجان؟

وهذا كله كان من ولع الشاميين بالغناء وإقبالهم عليه حتى انعقد إجماع فقهاء الذوق فيهم على أنه لا يصح اجتماع أو سمر إلا بالغناء؛ وإذا سها عنه ساه، فكفارته إطعام عشرة أصدقاء صدر كنافة شامية، أو صدر (كل واشكر) أو غير ذلك من الحلويات التى لا يخالف أحد فى أن دمشق أبرع مدينة فى صنعها. وأسألوا عن (أسدية) فى القاهرة، ومطعم الفردوس فى بغداد، واذكرونى بالخير، فإن الدال على الخير كفاعله.

والدمشقيون أكرم الناس، وأشدهم عطفاً على الغريب، وحباً له، فهم يؤثرونه على الأهل والولد؛ ومدينتهم من أنظف المدن لتدفق مائها وكثرة أنهارها، ووصولها إلى الأحياء كلها ودخولها البرك فى الدور، حتى لا يخلو حى من نهر. فنهر (يزيد(٢)) يسقى الصالحية، و(تورا) يسقى العقيبة وسوق ساروجا(٣)، و(بانياس) يسقى القيمرية، و(قنوات) يسقى حى القنوات، وقد أخذت مياه عين الفيجة (وهى من أصفى العيون وأعذبها تنبع من جبل على عشرين كيلاً من دمشق) فسيّرت مياهها فى بطون الجبال حتى أبلغت دمشق فأدخلت دورها، فشرب منها الناس أعذب ماء وأبرده. والشاميون مولعون بالنظافة والطهارة، حتى أنه ليعدّ من أكبر عيوب المرأة ألا تغسل أرض دارها كل يوم مرة أو مرتين بالماء غسلاً وتمسح جدرانه وزجاجه، على رحب الدور الشامية، واتساع صحونها، وكثرة مرمرها ورخامها. وادخل المساجد تر بلاطها يلمع كالمرايا، ويحبب الصلاة إلى من ليس من أهلها. وعرّج على المطاعم تبصر الأطعمة مصفوفة أمامك فى القدور الصغار النظاف بأناقة تجيع الشبعان، ونظافة تطمئن إليها نفس الموَسوِس(١). أما ألوان الطعام فى الشام فلا يضاهيها شىء فى غيرها، وما أكل الغريب فى دمشق حلواً ولا حامضاً ولا حاراً ولا بارداً إلا استطابه وفضله على طعام بلده، وما استطاب الشامى فى غير بلده طعاماً قط. ومن خير مطاعم مصر والعراق، وألذها طعاماً وأحسنها نظاماً، ما كان صاحبه شامياً أو كان على منهج أهل الشام. ثم إن خدم المطاعم والقائمين عليها طيّعون أذكياء، وهم يدركون باللمحة السريعة، ويفهمون بالإشارة الخفية.

ودمشق أرخص بلاد الله وفيها النعيم المقيم ولا تخلو من ثمر قط لا فى الصيف ولا فى الشتاء. أما جودة ثمارها فأشهر من أن تذكر؛ وفيها من العنب ما يزيد على ثلاثين نوعاً، ومن المشمش تسعة أنواع، ومن التين قريب من ذلك، ومن الدراق والكمثرى والتوت الشامى والجوز واللوز ما لا يوجد مثله فى غيرها

والدمشقيون أهل براعة فى الصناعة وعندهم من المعامل الكبيرة معمل للاسمنت عظيم (فى دمّر ظاهر دمشق) ومعمل للأثمار (الكونسروه) لا نظير لما يصنعه. ومعمل للدباغة كبير، ومعمل للجوخ، ومعامل كثيرة لا تحصى للمنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والجوارب (والكرافات)، ومعمل للزجاج، ومعامل صنعت أكثر أنواع الأدوية وحكم الأطباء بجودة ما تصنعه، ومعامل لأنواع السكاكر والمربيات (والشوكولاته). وفى دمشق مدرستان للعلم الديني فيهما

(١) ومما رأيت فى العراق أنهم يأكلون الشمندر: اللفت المسلوق ويدعونه الشلغم

(٢) نسبه إلى يزيد بن معاوية

(٣) نسبه إلى صاروجا من أمراء المماليك

(١) بصيغة الفاعل – كذا يضبطها الفقهاء – أى يوسوس لنفسه